من قوة هؤلاء الزعماء ومدّ نفوذهم للمدن. وأمام حالة العجز والمعاناة انتشر بين أهالي فلسطين معتقد بظهور المهدي المنتظر، بل ظهر أكثر من شخص إدعى لنفسه هذه الصفة.

حكم سلاطين آل عثمان بلادهم قبل الاستيلاء على بلاد العرب من ١٥١٦ - ١٩١٧م، وتعود جذور آل عثمان إلى أسيا الوسطى. وقد احتل العثمانيون القسطنطينية عام ١٤٦٣م واستبدلوا اسمها باسطنبول واتخذوها عاصمة لهم. وتزامن مع صعود العثمانيين أفول نجم العرب في الأندلس. وعلى غرار قائدهم عثمان واصلوا نهجه القتالي التوسعي إلى أن أصبحوا إمبراطورية مترامية الأطراف. وبين مد وجزر دحروا المغول وهزموا بيزنطة والدولة الصفوية في إيران والمماليك في بلاد الشام ومصر ووصلوا بلغاريا وهنجاريا ويوغسلافيا وأثينا. والسلطان سليم الفاتح أول من حكم بلاد العرب باستثناء المغرب التي تركها ابنه سليمان القانوني لحليفته فرنسا التي ساندته ضد مملكة النمسا. وقد (منح الفرنسيين مراكز تجارية (١٥٣٠م) في عكا ومدن الساحل، وكانت هذه بداية الامتيازات الأجنبية التي منحها العثمانيون للأوروبيين، وبعد ٥٠عاما (١٥٨٠م) منح الانجليز الامتيازات نفسها)[٧٨]. وفي (١٧٤٠م وقع السلطان محمود الأول معاهدة مع الفرنسي لويس الخامس عشر فتحت فلسطين لجميع المسيحيين الوافدين تحت العلم الفرنسي... ونتيجة ذلك أسس اللاتين مدرسة للبنات في كل من بيت جالا وغزة وكانت تلك أول تجربة من نوعها في فلسطين)[٧٩]. وفي أواخر القرن ١٨ هزم الروس العثمانيين بعد حرب طويلة واستحوذوا على امتيازات مشابهة.

حسب الدكتور شوفاني: «أن فلسطين لم تقاوم الزحف العثماني وقد كفرت بالمماليك في أواخر حكمهم، فيما عدا نابلس التي تمردت وسحقت، والقدس وصفد بعد حين... سيما أن المماليك أثقلوا على الناس بالضرائب وفرضوا التجنيد الاجباري وقسموا فلسطين إلى أربعة أجناد».

بعد أن قضى السلطان سليم على المماليك في فلسطين انعكست القوانين والأنظمة الإدارية وانتعاش التجارة في إمبراطوريته على فلسطين وتم بناء سور القدس وأبراجه، وأصبح عدد سكان القدس ١٦ ألفا، ثلاثة أرباعهم من المسلمين وربع من المسيحيين واليهود، وغزة ١٤ ألفا وصفد ١٢ ألفا والخليل ستة آلاف، كما زاد عدد القرى والتجمعات إلى أن أصبحت تضم فلسطين ٣٠٠ ألف بينهم ٢٠٪ في المدن.

---

٧٨) د. بيان الحوت، مصدر سابق ص١٢٩

٧٩) د. الدباغ، مصطفى. الموجز في تاريخ الدولة الإسلامية. فلسطينيات ص٤٠